راضي عبده..

(10) ملاك وشيطان

(هل تراهِن أن الشرّ سينتصر في النهاية)

من عالم آخر تردّدَ صدى تلك الكلمات في جنبَات اليهو الفسيح لبرج شاهق الارتفاع ينقسم إلى نصفين؛ أحدهما مطليّ بلون حالك السواد، والشطر الآخر فاقع البياض، كان يجلس في جزءِه الداكن مخلوقٌ بشع الخلقة، عيناه مشقوقتان طوليًا كأعين الثعابين، يبرز من ناصيته قرنان ملتويان، يرتدي حرملة نارية، يتراقَص من خلفِه ذيل طويل رفيع، وجّهَ هذه العبارة إلى كائن مسالم وديع أشبه ما يكون بإله الحب (كيوبيد)، ذلك الملاك الوسيم ذو الجناحين والوجه الطفولي البريء، كان يجلس على عرش أبيض زاهٍ، أسبَلَ جفنيه وهو يقول في صوت أشبه بالهمس:

– محال يا (شازام)، أثقُ أن الخير ستئول له عاقبة الأمور، وأراهنك بحياتي على ذلك.

نهض (شازام) من فوق عرشه وخطَا خطوات واسعة، قبل أن يتوقف عن الخط الفاصل، وضغط على حروف كلماته وهو يقول بصوت باردٍ قاسٍ:

– اتفقنا يا عزيزي (خازام)، سنرى لمن ستكون له الغلبة في الختام.

قالها، ثم وجّهَ بصره صوب تلك البللورة السحرية الضخمة التي تنقل أحداثَ تلك القصة التي تدور رحاها على الأرض في نزاع أزليّ بين المتنافرَين؛ الخير.. والشر.

تسلّلَت خيوط الضوء الفضيّة للقمر لتبدّد شيئًا من الظلام الدامس لغابة مترامية الأطراف؛ ليَبدُو أن هُنَالك ظلَّ شخص مفتول العضلات، متِين البنيان، تفُوح منه رائحة الفتوة، يرتدي عباءة رمادية اللون، ويغطي شعره بقلنسوة زرقاء، يمتطِي جوادًا أدهمًا، توغّل في الغابة وشق طريقه وسط الأشجار في تؤدة، حتى وصل عند حدود بحيرة طبيعية ضيقة تفيض بالمياه الغائرة، تطوّق منطقة أشجار كثيفة، ترجّل عن صَهْوة جواده، وزوَى ما بين حاجبيه، عندما أبصر على ضوء القمر الخافت صفحة الماء التي تعجّ بأسماك صغيرة من نوع (البيرانا) المتوحشة التي تتغذّى فقط على اللحم، تصاعدت من خلفه جلبة قوية، مع ارتفاع حفيف أوراق الشجر؛ فاستدار على الفور ليتبيّن مصدرها، وزوَى ما بين حاجبيه، وجفَل شاهقًا في ارتياع، قبل أن يَصِيح قائلًا:

– ربَّاه.. من هذا؟!

أخذَ يحدّق في زوج من عينين حمراوين بلون الدم أخذَت تُحمْلِق فيه بوحشية وشراسة الدنيا، كان مخلوقًا عملاقًا يناهز المترين طولًا، ضخم الجثة.. قبيح الخلْقَة من فصيلة تشبه الغوريلا، يدبّ الأرض بقدميه الضخمة المفلطَحَة، يحمل جسمًا مُغطّى بشعر أسود كثيف، ذو أنفٍ أفطس وفمٍ واسع كبير.. تبرز منه أنياب حادة قاتلة، يبعث مرآهُ أقصي آيات الرعب والهلع في أوصال أشجع الشجعان، ظهر بغتة وكأن الأرض انشقَّت وأنجبته من العدم!

دق الوحش الضاري على صدره بقبضتيه في تتابع قوي وكشر عن أسنانه الحادة، وزمخر وهو ينقض على مفتول العضلات، الذي أخذَ يعافره وينازعه؛ فعاجله الوحش بعقرةٍ عنيفة وهو يجثم فوقه بكل قواه؛ فأرداه طريحًا على ظهره مجندلًا فوق الأرض العُشبية، ثم نشَبَ نصال مخالبه الماضية لينهشه في بطنه!

دار الرجل بجسده أرضًا؛ فتفادى بأعجوبة مخالب الوحش، وبسرعة سلَّ خنجره الطويل الحادّ من غمده، وأمسك مقبضَه بقبضة من فولاذ، وبحركة جانبية ماهرة هوَى بخنجرِهِ بكل ما أوتي من قوة عزيمة غامدًا نصله حتى مقبضه في عين الوحش؛ فاخترَقَها حتى نفدَت ذُؤابتهُ من مؤخرة رأسه محملة بتلافِيف مخه، وفي أعقابه نافورة غزيرة من الدماء القانية؛ لتنطلق من حلق الوحش صرخة رهيبة زلزَلَت كيان مفتول العضلات، وكادت من شدتها أن تمزّق طبْلَتَي أذنيه، بعدها هام الوحش على وجهه وأخذ يدور بلا هُدًى حتى سقط في قلب البحيرة مباشرة، مُجندلًا من فوره، ومُضَرّجًا بِالدِّمَاءِ، وسرعان ما تكالَبَت عليه تشكيلات منتظمة من أسماك (البيرانا)، وأخذَت تنهش في جسده الخامل وتمزق لحمَه بنهَم، حتى اضطربَت هذه البقعة من البحيرة وبدَت تتعرض للغليان، وتخضبت المياه بالدماء القُرْمُزيّة على مساحة واسعة، ولم تترك (البيرانا) فريسَتَها إلا بعد أن أجهَزَت عليها، وحوّلَت جسدها إلى هيكل عظمي مفرّغ من اللحم تمامًا!

حدّقَ الضخم في هذا المشهد المروّع؛ ليتنفس من بعده الصعداء، وبالطبع تجاهل المعبر الخشبي الوَاطِئ والذي تكاد المياه تُغطيه، وقفَزَ برشاقة قط بريّ ليتعلق بإحدى الألياف الطويلة المتدلية، وتأرجَحَ به لحظة، ثم راح يقذف جسده إلى الأمام في قوة وإصرار، والأسماك المفترسة تتواثَب من أسفل قدميه، حتى كادت تنهشها بأسنانها الحادة، لولا أنه قوّسَ جِذعَه وهو يطير مندفعًا في الهواء حتى تجاوز البحيرة وبلغ الشاطئ الآخر، وهناك ترَكَ جسدَه يهوِي بعد أن ثنَى ركبتيه لامتصاص صدمة السقوط، وأخذ يسعل ويلهث، وصدره يخفق في شدة من فرط الجهد والانفعال، وانتظر حتى هدأَت أنفاسه المضطربة قليلًا، ثم نهض معتدلًا، وأمعَن النظر؛ ليرى كوخًا خشبيًا شبه متهالك، يكاد يتوارَى عن الأنظار خلف نباتات وأشجار الغابة الوارفة

الضخمة، وصل إليه وعالج مزلَاج نافذة الكوخ الجانبية، ونجح في التسلّل للداخل في هدوء؛ ليلمح على وهج المشاعل المثبتة على الجدران خادمًا نحيلًا يرقد مستلقيًا بجوار الباب من الداخل، يغُطُّ في نوم عميق، وعلى أطراف أصابعه تحرّك بحذر شديد حتى بلغ بابًا دفعه في خفوت؛ ليدلف إلى داخل حجرة عتيقة الطراز، عظيمة المساحة، فاخرة الأثاث والرياش، تراقصَت على وجهه ظلال برتقالية مخيفة، ألقَتْها نيران شموع في شمعدانات خُماسية تزخر بها أركان الحجرة، رَمَى نظرَةً تفيض بالمَقْتِ والكراهية على من تتدثّر بالغطاء فوق الفراش الوثير، وبلا رَوِيَّة أخرج من غَمْدٍ معلق بنطاقٍ في خصره خنجرًا عجيبًا ذا نَصلٍ معقوق برّاق من الماس، وتقدم نحو الفراش، وعيناه تبرقان في وحشية، ورفع خنجره في الهواء بين قبضتيه، ثم هوَى به يطعن من يخْلدُ إلى النوم..

ويطعن..

ويطعن..

ويطعن..

***

تألقَت عينا (خازام) وهو يضمّ قبضته علامة النصر المُبِين، ويهتف بصيحة المظفر قائلًا:

– هيا افعلها أيها الرجل واقضِي على ساحرة الشر للأبد.

توتّرَت أعصاب عدوه اللدود (شازام)؛ فهبّ من مقعده وهو يقول في نبرة يعتريها الانزعاج:

– هيهات هيهات يا عزيزي، ليس بهذه البساطة ينتصر النقاء، هذا سابق لأوانه، فلنترقب ماذا سيحدث؟!

أومأ (خازام) برأسه موافقًا وهو يقول في ثقة مفرطة:

– أجل.. فلننتظِر ونرى.

***

فجأة تسمر الرجل في مكانه، وتوقف عن مواصلة الطعن، وقد فَطِنَ أن في الأمر خدعة ما، سقَط فيها كالغرُّ الساذج، وفي حركة عصبية متوتّرة أزاح طرف غطاء الفراش بنصل خنجره؛ فاِستَشاطَ غضبًا، وجُنّ جنونه وهو يتطلع إلى الوسادة الحريرية الزرقاء الموضوعة طوليًا، والتي مزقّتْها طعناته، ثم بحركة غريزية رفع عينيه إلى أعلى، ولم يكَد يفعل حتى انتفَضَ جسده في عنف كالملسوع.

وفاغرًا فاه، حَمْلَق مشدوهًا إلى امرأة باهرةِ الحُسن، جمالها بارد كالثلج، شعرها أسود فاحم مثل شلّالٍ ينسدل حول وجهٍ تبرز فيه أهدابها الطويلة، المؤطّرة بألوان قوس قزح، كانت غريبة الأطوار بحقٍ في وضعية عجيبة متجمدة خلالها كالتمثال، ومعلّقة ذاتيًا في فراغ الحجرة في تَحَدٍ سافر لقانون الجاذبية الأرضية!

ظهرُها ملتصقٌ بالسقف كالخفاش، وجفناها ينفرجان في تلك اللحظة عن عينين واسعتين كحيلتين، تتألقان وتلتمعان بوهج جُهنّميّ، حتى تحوّلت إلى سراجَين مشعَّين كاد ضوؤُها يغشي بصره، وهما يحدّقان فيه بكل غضب ووحشية الدنيا.

مضَت لحظات تسيّدَ فيها الصمت البليغ المطعّم بالترقب الأجواء، أخذت خلالها السيدة تُبرّقُ لجلادها بنظرة مُجابَهة مفعمة بالشر، وسكن الموقف تمامًا؛ ليبدو وكأن عقارب الزمن قد توقّفَت عن الدوران، بعدها استعادَت عينا المرأة حالتها الطبيعية، وكرَدّ فعل تلقائي انتبه الرجل إلى أنه لا يزال يحمل سلاحًا فتاكًا، فهمَ أن يُشهِر

خنجره الماسي؛ ليعيد الكَرّة وينقضّ عليها مرة أخرى، ولكن السيدة كان رد فعلها خاطفًا، أطلقت فيما يشبه مواء قطة ساخطة منزعجة، وهي تنفصل عن السقف لتهبط خلفه، وبضربَةٍ قوية مباشرة من باطن كفها لطمَت سلاحه؛ فأطاحت به بعيدًا في أحد أركان الحجرة؛ فدار على عقبيه مزمعًا الفرار، ولكنها عاجلته بأن أمسكت بتلابيبه، ورفَعَتْه عن الأرض كما لو كان مجرد دمية صغيرة، هاتفَةٌ في لهجة تعُجّ بالتأفّف والتبرَّمَ:

– على رسلِكَ يا رجل، إلى أين تفرّ مني؟!

على إثر الجَلَبَة العنيفة استيقظ خادمها النحيل من نومه فزعًا، وبصوت أجشّ أصدر همهماتٍ غير مفهومة، تُبَرْهِن على كونه أَبْكَم، وهو يهرع صوب حجرتها لمؤازرتها، ولم تُعِرْه اهتِمامًا، وأخذت تُشدّد من ضغطة ذراعها على القصبة الهوائية للرجل الذي أيقَن بأن حياته في خطر داهم بعد شعوره بآلام رهيبة تغزو عنقه، والهواء يحتَبِس عن صدره، وحاول الاستنجاد؛ فخرج صوتُه مُتحشرجًا، وكان على شفَا الاختناق حرفيًا، لولا أنها -ولِسبب ما- طَرَحَتهُ عَلَى الأرْضِ؛ فاندفع إلى الخلف في عنف، ثم دار جسده حول نفسه رأسيًا؛ ليسقط على وجهه وكل عظامه تئن ألمًا، فنظَرت إليه شَزَرًا، وهى تصيح في بُغْضٍ بغلظة هادرة:

– ذُق من كأس ناري، جزاءً ما اقترفَت يداك أيُها السافل.

قالتها وهي ترفع قبضة يدها، وتكوّرها لتتألق ويصدر منها برق مفاجئ، دفعته دفعًا نحو غريمها الذي دار بجسده دورة خاطفة مكّنَتْه من تفادي كرة البرق الصاعقة، التي ارتطمَت بجدار الكوخ الخشبي، ثم واصلَت طريقها لتنفُذَ منه إلى الخارج، بعد أن أضرمَت النيران في خشبِه، وبلغَت ثَوْرَةُ الغَضَبِ ذرْوَتِها بالسيدة وهى ترى الرجل يطلق

ساقيه للريح؛ ليخرج من الكوخ، وظل يركض ويركض؛ فصاحت في خادمها النحيل، هاتفة في امتعاض:

– هيا أيُها الأبله أخمِد هذه النيران، وأنا سأذهب للانتقام من هذا المجرم الأخرق.

اندفَع خادمها نحو مركز النيران محاولًا الحدّ من انتشارها؛ لتسود جنبات الكوخ فوضى عارمة، مع ارتفاع ألسنة لهبٍ راحَت تلتهم أخشابه على نحو مخيف، في تلك الأثناء انطلَقَ القاتل يعدو بقلبٍ واجف وهو ينظر خلفه بَيْنَ الفينَةِ والأخرى، وفي نفسه وَقَرَ أنه قد أصبح مُطاردًا بمنتهى الصّرامة والشراسة، ظل ذلك الهاجس يؤرقه ويشغل تفكيره، حتى أنه لم يشعر بأنه يطَأُ موطِئًا خطرًا، فبسرعة وجد أطراف شبكة صيد مصنوعة من خيوط الصُلب القوية ترتفع لتحيط بجسده إحاطة السوار بالمعصم، وحملته إلى الأعلى قبل أن يرتطم جسده بغصن شجرة بكل قَسَوة، ولم يلبَث أن ارتاع قلبه وارتعدت فرائصه، بعد أن صار أسيرًا بين المطرقة والسندان؛ فأخذ يقاوم الشبكة المعدنية ويضربها في استماتة، ولكن سرعان ما تبيّن له أنه لا جدوَى من المقاومة؛ فآثَرَ الرضوخ بالاستسلام المؤقت، انتظارًا لما ستتّخذُه حياله السيدة التي اتجهَت إليه بناظريها في شماتة واضحة، وهي تُصيح في غطرسة بلهجة عدوانية صارمة:

– ها نحنُ ذا نلتقي مرة أخرى يا صائد السحرة، ولكن الآن تبدّل الحال؛ فأصبحتَ أنتَ الفريسة وأنا الصياد.

عقدَت ساعديها أمام صدرها، واستطردَت تهتف في حزم لا يعرف المراوغة بصيغة استفهام تتوق لجواب:

– لماذا تُريد قتلي بهذا السعَارِ المحموم؟!

من شدة خوفه وَجَم صائد السحرة عدة لحظات، قبل أن يرد في تسليم:

– العالم مكانٌ سوداويّ طالما ظل السحر يُعربد فيه، وقد قررتُ تخليص البشرية من عُتاة أشرار السحرة ذائعي الصيت أمثالكِ يا (شيراز).

كوّرَت قبضتها لتلظَى بنار متأججة، وهي تُدمدم في غيظ دفين:

– تتحاكَى عن الشرّ؛ إذن فلتَنَلْ نصيبًا موفورًا من عذابي الأليم.

على الفور أيقَن أنه في عِدَادِ الْمَوْتِ؛ فحاول في لحظاته الأخيرة أن يُداري اضطرابه ليَبدُو متماسكًا ولو ظاهريًا، ولكن رغمًا عنه خذَلَه صوته فخرج متلعثمًا، وهو يهتف صاغرًا:

– أتضرع وأطمع في عفوكِ يا ذات القلب الرءوم.

ران الصمت لبُرْهَةٍ قصيرة من الوقت، ثم بغِلْظَةٍ سألته (شيراز) في اشمئزاز، وهي مُقطبة الجبين:

– وما القُرْبان الذي ستقدّمه نظير عتق رقبتك يا أسيري العنيد؟!

طافَت بمخيلته الأهوال الفظيعة التي خاضَها حتى حاقَت به هذه المصيبة، ولذلك فقد بدَر في ذهنه عرضٌ قد يُنجيه من الهلاك؛ فتعلق بحبال الآمال المهترئة، وهو يجيبها بنبرة تحمل رنّة الضراعة والتوسل:

– في مُقابل عفوكِ سأدين لكِ بحياتي، وأصبحُ خادمك المُطيع.

انفرجَت تقطيبة جبين (شيراز)؛ فهزت كتفيها، وقالت في بساطة وثقة تُحسد عليها:

– تستهويني بالفعل فكرة العفو عنك تقديرًا لقلبك الشجاع وبسالتك النادرة، ولذا فقد قررتُ أن أهبُك صفحي الجميل.

قالتها وهي تدفع كرة لهب باتجاه الحبال المُتصلة بقمة الشبكة؛ فوجدها تهوي به لتعيده إلى الأرض، وهي تستطرد مُستفهمة في تَشَفّ واضح:

– بمَ تُدعَى يا صائد السحرة سابقًا؟

بأسارير مُتهلّلة أخذ يُحرّر نفسه من حَبَائِلَ شبكة الصَّيْدِ، وهو غير مصدق خروجه سالمًا من هذا الكَمِينَ المحكم، ثم سرعان ما تغيّر حاله إلى النقيض؛ فانحني بجذعه وخفض عينيه، وأجابها في مذلة:

– عبدُكِ المطيع (شيكان) في خدمتك يا سيدتي.

– كلّا، بل سيكون اسمُك مُنذ هذه اللحظة (ألفا)، وستُشكّل مع الخادم (بيتا) فريقًا رائعًا لخدمة أهدافي الشريرة.

***

ران الصمت والسكون للحظات، قبل أن يقف (خازام) مطأطئًا رأسه، وسار بخطوات متثاقلة حتى وصل لحدود الخط الفاصل بين الظلام والنور، وكان في انتظاره (شازام) بأوداجه المنتفخة ووجهه الدميم وذيله الذي يتلاعب خلفه، ولم ينبسّ الأول ببنت شفة وهو يخطو بجرأة ليعبر إلى الجانب المظلم؛ فتلقّفَه الأخير وبلا رحمة أو هوادة، راح يعتصر عنقه النضر اعتصارًا بيديه العاريتين، ولم يتركة إلا بعد أن أجهز عليه تمامًا.

واكَبَ ذلك أن كسَا الأسودُ على الأبيض؛ ليصطبغ كل شيء بالسواد، وابتسامة (شازام) الشيطانية تتسّع وتتسع؛ لتضفي على المشهد القاتم شرًا مستطيرًا فاق كل الحدود.